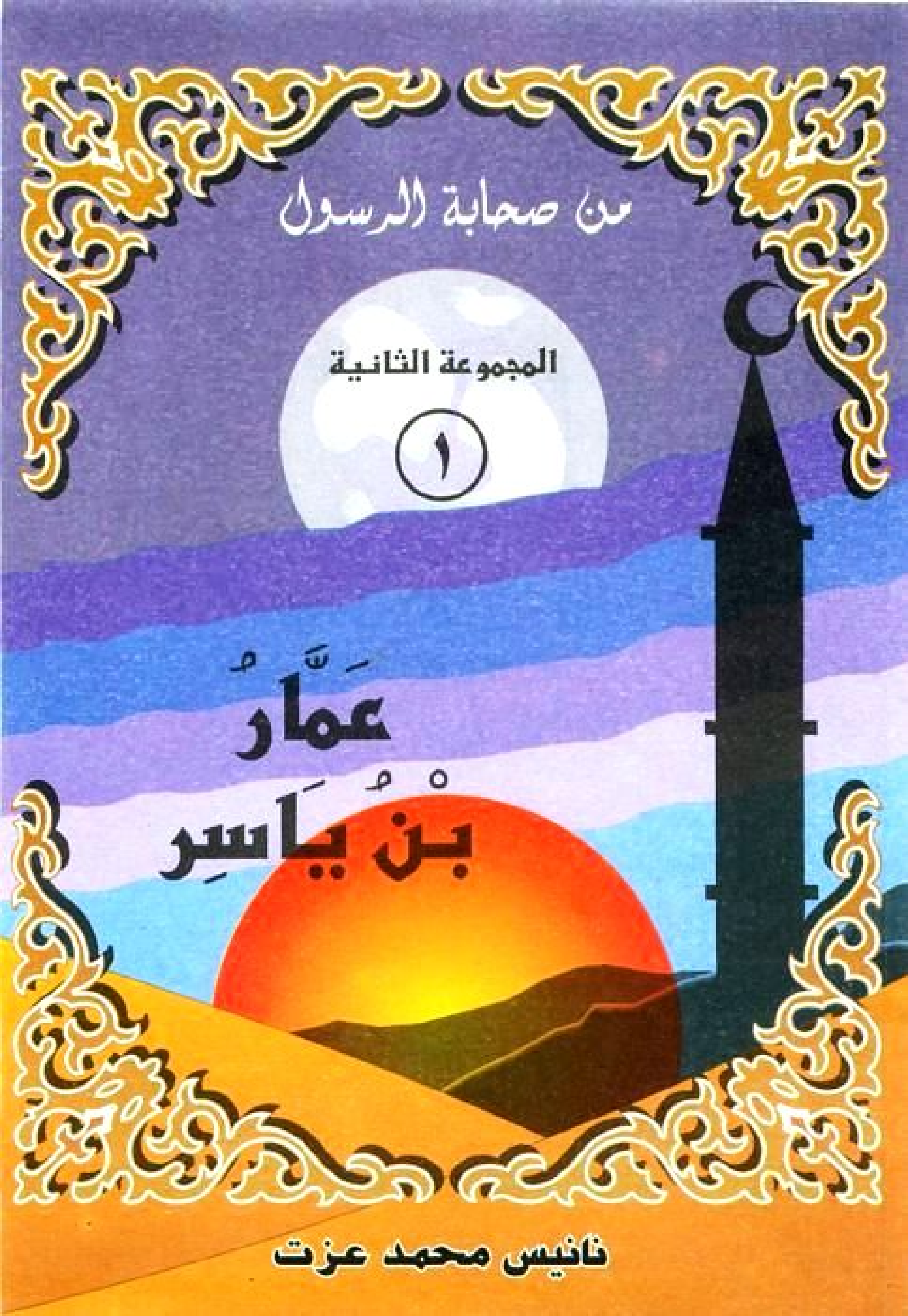

من صحابة الرسول
المجموعة الثانية
١
عَمَّارُ
بْنُ يَاسِرِ
نانيس محمد عزت

عمار بن ياسر

أَقبلَ فَصلُ الرَّبيعِ فأَورقَتِ الأشجار ، وتَفتَّحتِ الزُّهور ، ولَبِست الطَّبيعةُ رِداءَها الوَردِيَّ الجَميل .
وأطلَّ أَيمنُ من نافِذَةِ غُرفَتِه ، فوجَدَ الأَزهار تَتمايَلُ مع نَسماتِ الرَّبيعِ الدّافِئَةِ في جَميعِ الحَدائِق ، ونَظر إلى حَديقَةِ بَيتِهم ، فوجَدَها ذابِلَةً مُصفَرَّة ، لا حياةَ فيها .

ذهبَ أَيْمنُ إلى أبيهِ وسأَلَهُ وهو حَزين : لِماذا يا أَبي تَبدو حَديقَتُنا فَقيرَةً جَرداء ، بين حَدائِقِ الجيران ؟ إنَّ مَنظرَها يَدعو إلى الخَجَل .

أجابَ أبوه : نَعَم يا أيمَن ، فمَنظرُ الحَديقَةِ لا يُسرّ ، ويرجِعُ ذلك إلى أنَّ العَمَّ خَليل البُستانِيّ ، لم يَعدْ يأتي إليها مُنذُ وَقتٍ طَويل .

قالَ أيْمَن : ولماذا لم يَعُد العَمُّ خَليل يَتردَّدُ عليها ؟ أهو مَريض ؟ هل تَسمَحُ لي يا أبي أن أَزورَهُ في بَيتِه ؟

فرِحَ أبوهُ لشعورِ ابنِه الطَّيِّب ، وقالَ له : بالطَّبعِ يا أَيْمَن ، فزيارةُ المَريضِ واجبَة . خُذْ مَعكَ الحارِسَ العَمَّ عَبدُه ، فهو يَعرِفُ بَيتَ العَمِّ خَليل . إنَّ العَمَّ خَليل رجُلٌ طَيِّب ، يَخدُمُ أُسرَتَنا مُنذُ خَمسينَ سَنة ، ولا يَمنَعُه عَنّا إلاَّ الشَّديدُ القَوِىّ .

فى الصَّباحِ بعدَ تَناوُلِ طَعامِ الفَطور ، ذهبَ أيْمنُ والعمُّ عَبدُه لزيارَةِ العَمِّ خَليل البُستانىِّ فى بَيتِه ، الَّذى فرِحَ بزِيارَتِهما . وسأَلَهُ أيْمَن :

– لماذا لم تَعدْ تَترَدَّدُ على حَديقَتِنا يا عَمُّ خَليل ؟ أأنتَ مَريض ؟

أجابَهُ العَمُّ خَليل : لا واللّهِ يا أَيْمَن ، فأنا بخَيرٍ والحَمدُ لِلّه . ولَكنّى تَقدَّمتُ فى السِّنّ ، وفَضَّلتُ أن أبقَى فى البَيْت.

اسْتَعجبَ أيمنُ وقال : أيُعقَل هذا يا عَمُّ خَليل ؟ تَتمتَّعُ بالصِّحَة ، وتَمتَنِعُ عن العَمَل ؟

رَدَّ عَليهِ العَمُّ خَليل فى يأس : إنَّها السِّنُّ يـا وَلـدى . فقد أَشرفْتُ على الخامِسَةِ والسِّتينَ مُنذُ أيّام .

قالَ أيْمَن فى حَماس : وما دَخلُ السِّنِّ فـى العَمَـل ؟ فما دُمـتَ بكـامِلِ صِحَّتِـكَ وتَقـدِرُ علـى العَطـاء ، فـلا حُجَّـةَ لـك فـى تَـركِ العَمَـل . أَتعلـمُ أنَّ أحـدَ صَحابَــةِ الرَّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلَّم ، وهو عَمّارُ بـنُ ياسـر ، خاضَ حَرْبًا ضارِيَةً وهو فى الثّالِثَةِ والتّسعينَ من عُمرِه ؟

ابتسمَ العمُّ خَليل وقال : فى الثّالثَةِ والتّسعين ! علـى ذلكَ فإنّى مازِلتُ فى رَيْعانِ الشَّباب .

قالَ العمُّ عَبدُه : الشَّبابُ شَبابُ القَلبِ يا عَمُّ خَليل. ولكِن كيفَ استَطاعَ عَمـارُ بـنُ ياسِـر ، أن يَشـتَرِكَ فـى مَعرَكَةٍ وهو فى مِثلِ هَذِهِ السِّنِّ المُتقدِّمَة ؟

قالَ أيْمَن : دَرسْنا قِصَّةَ عَمّارِ بنِ ياسِرٍ فى المَدرَسة ، وسوف أَحكيها لكُما . كان أَبو عَمّار ـ ياسِرُ بنُ عـامِر ـ مـنَ اليَمَـنِ . وقـد جاءَ إلى مكّـةَ يَبحَثُ عن أخٍ لـه

مَفْقود . وعندَما يَئسَ منَ العُثورِ على أخيه ، قرَّرَ أن يَستَقِرَّ في مَكّة ، في جِوارِ البَيتِ العَتيق . وكعادَةِ العَربِ آنَذاك ، كانَ عليهِ أن يُحالِفَ أحدَ السّادَةِ في مكّةَ لِيرْعاه ، فحالفَ «أبا حُذَيفَةَ بنَ المُغيرَةِ المَخزوميّ».

وأُعجبَ أبو حُذَيفَةَ بنُبلِ أخْلاقِ ياسِر ، فزوَّجه أَمَةً - أي جارِيَةً - له ، اسمُها « سُمَيَّةُ بنتُ خِياط » ، أنجَبت له عَمّارا .

شبَّ عمّارُ بنُ ياسِرٍ في مكّة ، في ظِلِّ أبَويْه ، ومِثلَ كُلِّ أَهلِ مَكّةَ كانَ يَنتظِرُ الحَدَثَ العَظيم « البِشارَةَ بالنُّبوَّة » الّتي قيلَ إنّها ستَتحقّقُ فيها قَريبا .

وصَدقتْ البِشارَة ، وبُعِثَ مُحمَّدٌ صلّى اللّهِ عَليهِ وسَلّم نبِيًّا للنّاسِ كافّة ، يَدعو إلى عِبادَةِ اللّهِ وَحدَه ، ونَبذِ عِبادَةِ الأَصْنام .

واخْتلفَ النّاسُ في قَبولِ دَعوَتِه ، فمنهم من صدَّقَ وآمَن ، ومنهم من أعْمَتهُ العَصبِيَّةُ القَبَلِيَّة ، وخوفُه علَى

تِجارَتِهِ ونُفوذِهِ من إيمانِهِ بالدّينِ الجَديـد . وكـان أغْلَـبُ هَؤلاءِ من سادَةِ القَوم . أمّا العَبيدُ والإماءُ فقـد وَجَـدوا فـى الدِّيـنِ الجَديـد ، العِزَّةَ والكَرامَـة ، والحُرِّيَّـةَ الّتـى فَقَدوها فى حَياةِ الرِّقِّ والعُبودِيَّة . ومن بَينِ هَؤلاءِ كـانَ عَمّارُ بنُ ياسِرِ الّـذى أسْلَم ، ومـا إن دَعـا والِدَيـهِ إلَى الإسْلامِ حتّى اسْتَجابا لدَعوَةِ الحَقّ .

ولكنَّ أمرَهُم افتَضَح ، وعلِمـتْ قُريشٌ بإسلامهِم ، فأوْكلتْ أمرَ تَعذيبِهم ، ورَدِّهم عـنِ الدّيـنِ الجَديد إلَى بَنى مَخزوم . فتحَمَّـل آلُ ياسِـرٍ مـنَ العَـذابِ فَـوقَ ما يُطيقُهُ البَشَـر . فألبَسوهم دُروعَ الحَديـد ، وصَهروهـم بأشِعَّةِ الشّمسِ الحامِيَة ، ومَنَعـوا عنهـم المـاء ، وتَعـاقبوا عليهم بالضَّربِ الشَّديد . ومرَّ بِهـم رَسولُ اللّـهِ صلّـى اللّهُ عليهِ وسلّمَ وهـو حَزيـن ، حيـثُ لا يَمْلِكُ أن يُردَّ عنهـم العَـذاب، فَقـالَ لهم : (صَبرًا آلَ ياسِـر ، فـإنَّ مَوعِدَكم الجَنّة) .

قالَ العمُّ عَبدُه : يـا لَهـا مـن بُشْـرَى ! فقـد بَشَّـرهُم الرَّسولُ بالجَنَّة .

قالَ أيْمَن : نعم ، إنَّ آلَ ياسِرٍ من المُبَشَّـرينَ بالجنَّـة . ولم يَتحمَّل الشَّيخانِ الكَبيرانِ ذَلكَ التَّعذيب ، فهـا هـى ذى سُمَيَّةُ تَموتُ بيَدِ أبى جَهـل ، إذْ طَعَنَهـا فـى أَسْفلِ بَطنِها فأَرْداهـا قَتيلَـة ، فكـانت بذلـكَ أوَّلَ شَـهيدَةٍ فـى الإسْلام ، وها هو ذا ياسِرٌ يَمـوتُ مِن وَطـأةِ التَّعذيـبِ وهو يُتَمتِمُ بالشَّهادتَيْن ، ولم يبقَ من آلِ ياسِرٍ إلاَّ عَمّار، فَتَفنَّنتْ قُريشٌ فى إيذائِهِ فأَحْرَقَتهُ بالنَّار ، فمرَّرَ الرَّسـولُ صلَّى اللَّه عَليهِ وسَلَّم يـدَهُ علـى رَأسِـهِ وقـال : (يـا نـارُ كونى بَردًا وسَلامًا على عَمّار ، كما كُنتِ بَردًا وسَلامًا على إبراهيم) .

وذاتَ يومٍ جاوَزَتْ قُريشٌ كلَّ حَدٍّ فى تَعذيـبِ عَمّـار، فأحرَقَتْهُ بالنَّار ، وصَلبَتْـهُ علـى رِمـالِ الصَّحـراءِ المُلتَهِبَـة ، وأَغرقَتْ وَجهَهُ فى الماءِ حتّى اختَنَقَ وتَسلَّخت جُروحُه .

قالَ العمُّ خَليل : يا لَلبَشاعَة ، ويالَلقَسوة !

قالَ أيْمَن : وفقدَ عمّارٌ عِندَئذٍ وَعيَـه ، وطلَبـتْ منـه قُريشٌ أن يَذكُرَ آلِهتَها بخَير . وبُدونِ وَعيٍ ردَّدَ عَمَّارٌ ما طَلبَتـهُ منـه قُرَيـش . وعِندمـا أفـاق انْهـارَتِ الدُّنيـا مـن حَولِه، فقد سبَّ ديـنَ مُحمَّـد ، وذكَـرَ الأَصنـامَ بخَير . أيكونُ قد صَبأَ بعد إيمانِه ؟ لا بدَّ أنّهـا النّهايَـة ! وذهـب عمَـارٌ حَزينًـا يائسـا إلى رَسـولِ اللّـهِ صلّـى اللّــهُ عَليـهِ وسَلّم ، وقصَّ عَليهِ ما كانَ من أمرِه . فسألَه : (وكيفَ تَجدُ قَلبكَ يا عَمّار ؟) قـالَ عَمّـار : أجـدُهُ مُطمَئنّـا يـا رَسولَ اللّه . قَال : (لا علَيْك : وإن عادوا إلى مِثلِهـا ، فعُد إلى مِثلِ ما قُلْت) .

قـالَ العـمُّ خَليـل مُستَبشِـرا : يـا لَسـماحَةِ الإسْـلامِ ويُسـرِه !. صـدَقَ مـن قـال : إنَّ الدّيـنَ يُسـر ، وليـسَ عُسْرا.

وصمَدَ عمّارٌ حتّـى حـلَّ الإعيـاءُ بجَلاّديـه ، وارتَـدّوا

صاغِرينَ أمامَ إصْرارِه .

قالَ العمُّ عَبدُه : الحمدُ لِلّه . فقد اقْشعرَّتْ أبْدانُنا من هَولِ ما قَصصتَ علينا من ألْوانِ العَذاب .

قالَ له أيْمَن مُداعِبا : اقشَعرَّ بدَنُك لمُجرَّدِ سَماعِكَ قِصَّة ، فما بالُك بِمن عاشَ أحْداثَها وتعرَّضَ لأهوالِها ؟

قالَ العمُّ عَبدُه : لا أَستَطيعُ أن أقولَ إلاّ ما قالَهُ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم : (إنَّ مَوعِدَكُم الجنّة)، فهو في الحَقيقَةِ أهلٌ لَها .

قالَ أيْمَن : وتنزّلتْ آياتُ القُرآن تُؤيّدُ مَوقِفَ عمّار: ﴿ من كفرَ باللّهِ من بعدِ إيمانِه إلاّ من أُكرِهَ وقَلبُه مُطمَئنٌّ بالإيمان ولكِنْ من شرَحَ بالكُفرِ صَدرًا ، فعلَيهم غَضبٌ من اللّهِ ولَهم عَذابٌ أليم ﴾ .

وأمرَ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، أصْحابَهُ بالهِجرَةِ إلَى المَدينَة ، وفرَّ عمّارٌ بدينِه . وفي قِباءِ دَعا الرَّسولُ أصْحابَهُ لبناءِ مَسجدٍ يجتَمعُ فيهِ المُسلِمون ،

فكانَ المَسجدُ الّذى أقامَه عمّارٌ وزُملاؤه ، هو أوّلَ مَسجدٍ فى الإسْلام .

وفى أثناءِ بناءِ مَسجدِ الرّسول ، عَمِلَ عَمّارٌ بهِمّةٍ ونَشاطٍ وحَملَ الأحْجارَ الثّقيلَة ، فتنبّأَ لهُ الرّسولُ بقَولِه: (وَيحَ ابنَ سُمَيَّة ، تَقتُله الفِئةُ الباغِيَة) .

وأحبَّ الرّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم عَمّارا ، فقالَ عَنه : (من عادَى عَمّارًا عاداهُ اللّه ، ومن أبغَضَ عَمّارًا أبْغَضَهُ اللّه) .

واشْترك عمّارٌ فى غَزوَةِ بَدر ، فكانَ الوحيدَ الّذى خاضَها وأبواهُ مُؤمِنانِ شَهيدان . كما اشْتَرَكَ فى سائِرِ الغَزَوات ، فكانَ على الدّوامِ فى الصُّفوفِ الأماميَّة ، حَريصًا على إحْدَى الحُسنَيَيْن : النّصرِ أو الشَّهادَة.

وبعدَ وفاةِ الرّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، كانَ له مَوقِفٌ رائعٌ معَ المُرتَدّين ، فعِندما رجحتْ كِفّةُ المُنافقِينَ فى يَومِ اليَمامَة ، وبَدأوا يَحصُدونَ أصْحابَ الرّسولِ

صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، وقفَ عمّارٌ فوقَ صَخرةٍ ، وقد قُطِعتْ أُذُنه وبَقيتْ عالِقَةً برأسِه ، وقفَ يَحفِزُ الجُنودَ ويَدعوهُم إلى التّقدُّم : يا معشَر المُسلِمين ، أمنَ الجنّةِ تَفِرّون ؟ إليّ يا مَعشَر المُسلِمين . وانطلقَ وأُذُنه تتذَبذَبُ على وَجهِه ، إلى أن تمّ قتلُ مُسيلمَةَ الكَذّاب ، وعادَ النّاسُ عن رِدَّتِهِم .

قالَ العمُّ خَليل : لقد بذَلَ المُسلِمونَ الأوائلُ جُهودًا كَثيرَةً لنُصرةِ الدّينِ ورِفعَتِه .

وقالَ أيْمَن : صَدقتَ واللّهِ يا عَمّ خَليل ، وصَدقَ الرَّسولُ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّمَ حينَ قال : (أصْحابى كالنُّجوم ، بأيِّهِمُ اقْتدَيتُم اهْتدَيتُم) .

وعندَما تولّى الخِلافَةَ عُمرُ بنُ الخَطّاب ، ولّى عمّارًا الكوفَةَ ، وجَعل معه عَبدَ اللّهِ بنَ مَسعودٍ على بَيتِ مالِ الكوفَةِ ، ومعلّمًا لمبادئِ الدّين .

قالَ العَمُّ عَبدُه : أخيرًا .. آنَ له أنْ يَستَريح ، فحَياةُ

الأمراء فيها بعضُ الرّاحَةِ والرَّفاهِيَة .

ضحِكَ أيْمَنُ وقـال : لا يَنطَبِـقُ هَـذا على أصْحـابِ الرَّسولِ يا عَمُّ عَبدُه ، فإنَّ الإمارَةَ بالنّسبةِ لَهم مَسئولِيَّة، وهيَ هَمٌّ باللّيلِ والنّهار .

واستعجبَ لذلك العَمُّ عَبدُه ، فقالَ لـه أيْمَـن : هـل تَخيَّلتَ أنّه اتّخذَ لنَفسِـهِ قَصْرا ، وخدَمًا وحَشَـما ؟ لا واللّهِ ، فقد كانَ زاهِدًا مُتواضِعًا ورِعا . يَشترى أشْـياءَهُ بنَفْسِه ، ويَربِطُها بحَبل ، ويَحمِلُها إلى دارِهِ على ظَهرِه ، وقد عايَرهُ أحدُ أهلِ الكوفَةِ بقَولِهِ له : يا أجدَعَ الأُذُن . فكانَ يَردُّ عَليهِ بقَولِه :

ـ خيرُ أُذُنىَّ سَبَبت .. لَقد أُصيبَت فى سَبيلِ اللّه .

وعِندما أُقصِيَ عن الإمارَة ، كانتْ له كلِمَةٌ عَظيمَة : واللّهِ لقَـد سـاءَتْنى الإمـارَةُ أكـثَرَ مِمّـا سـاءَنى الإقْصـاءُ عَنها.

وحانتِ اللّحظَةُ المَوعودة ، فَنشبَ الـنّزاعُ بيـنَ علـىٍّ

ابنِ أَبى طالِب ، ومُعاوِيَةَ بنِ أبى سُفيانَ علـى الخِلافَـة ، وأَحقِّيَّةِ كلٍّ مِنهُما بها .

وانحاز عمّارٌ من فَـورِهِ إلى عَلـىٍّ بـنِ أبـى طـالِب ، لا مُتَحيِّزًا ولا مُتعصِّبا ، بل مُتَّبعًـا لِلحَـقِّ وحافِظًـا لِلعَهـد ، فعلِـىٌّ بالنِّسبَةِ لُمحمَّـدٍ صلّـى اللّـهُ عَليـهِ وسـلّم ، بمَنزِلَـةِ هارونَ من موسَى .

وخرجَ عَمّارٌ وهُو فى الثّالِثَةِ والتّسـعينَ مـن عُمـرِه ، لنُصرَةِ الحَقِّ . خرجَ مـا دامَ يَعتَقِـدُ أنَّ القِتـالَ مَسـئولِيَّتُه وواجبُـه ، وقـاتَل كمـا يقـاتِل أبْنـاءُ الثّلاثـين ، فكـانَ لا يتكلّمُ إلاّ عائذًا باللّهِ من الفِتَنْ ، أو قـائِلا : اليَـومَ ألْقَـى الأحِبَّة ، مُحمَّدًا وصَحبَه .

وحاولَ أتْباعُ مُعاوِيَةَ أن يَتفادَوْا عَمّارًا فـلا يَقتُلـوه ، فَتعلّـمَ النّـاسُ أنّهـم هـمُ الفِئـةُ الباغِيَـة ، الّتـى تَنبَّأ بِهـا الرّسُول صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم .

وتحقّقتِ النُّبوءَة ، وقَتلَ جُنودُ مُعاوِيَةُ عَمّارا ، وتَبلبَلَ

جَيشُ مُعاوِيَة . فقد عَرَفوا أنّهم هُم البُغاة . ولكنَّ مُعاوِيَةَ بدَهائِه قال : إنَّ من قتلَ عمّارًا هُم عَليٌّ بنُ أبى طالِبٍ وأعْوانُه ، الّذين خَرجوا بهِ لِلقِتال وهو في مثلِ سِنّه .

أمّا عمّارُ فقد حَملَهُ الإمامُ عَلِيٌّ فوقَ صَدرِه ، إلى حَيثُ صلّى عَليهِ هو والمُسلِمون ، ودُفِنَ في ثِيابِهِ المُلطّخَةِ بدِمائه .

قالَ العمُّ خَليل : يالَلشَّجاعةِ ويا لَلإقْدام ! يُقاتِلُ وهو في الثّالِثَةِ والتّسْعين . إنّهُ أهلٌ للجَنّةِ حقًّا وصِدْقا .

قالَ أيْمَن : أتَعلمُ يا عَمُّ خَليل ، أنَّ النّبِيَّ صلّى اللّهُ عَليهِ وسلّم ، قالَ ذاتَ يومٍ وقد تَهلّلتْ أَساريرُه : اشْتاقَتِ الجَنّةُ لعَمّار .

قالَ العَمُّ عبدُه : يا سُبحانَ اللّه ! الجَنّةُ هى الّتى اشْتاقَتْ له ؟ يا فَرحَتَهُ .. يا هَناءَه !

قالَ أيْمَن : والآنَ يا عَمُّ خَليل ، هلْ ستترُكُ كسَلَكَ

وتَعودُ إلى العَمَلِ ؟ إنَّ حَديقتَنا اشْتَاقَت إلَيْك .

ابْتسَم العَمُّ خَليلٌ وقال : وأنا أيْضا اشتقْتُ لِلعَمـلِ بها . وأُصَدِقُكَ القَول ، إنِّى مَللتُ المُكثَ فى البَيتِ بلا عَمَلٍ . هيَّا بنا يا أيْمَن .. هيَـا يا عَـمُّ عَبـدُه إلى حَديقـةِ بَيتِكم ، حيثُ العَملُ والنَّشاطُ والهِمَّة .

قالَ أيْمَن : وأنا علـى اسْتِعدادٍ لأنْ أُسـاعِدَك ، فإنَّ غَرسَ البِذرَةِ فى الأَرض ، ورُؤيَتَها وهى تَنمو يَومًا بعـد يَومٍ حتى تُصبِـحَ شَـجَرَةً وارِفَـة ، هـى مُتْعَـةٌ أَىُّ مُتعَـة ! أَلَيسَ كَذلِكَ يا عَمُّ خَليل ؟